University of Zawia - Rewaq Alhkma Journal (UZRHJ)
Volume 10, Issue 02, (2026), pp. 01-18, ISSN:3079-0581

The Philosophy of Aesthetic Values in George Santayana

Fatimah Daoub

Department of Philosophy, Faculty of Arts, University of Zawia, Zawia, Libya

Email.af.daoub@zu.edu.ly |
https://orcid.org/0009-0002-3981-5170
Received: 01-10-2026 | Accepted: 15-10-2026 | Available online: 08-11-2026 | DOI:10.26629/uzrhj.2026.01

Abstract

The philosophy of aesthetic values developed by the thinker and philosopher George Santayana (1863–1952) represents a pivotal turning point in the history of modern aesthetics. He succeeded in shifting aesthetic inquiry away from idealistic metaphysical abstraction toward a naturalistic and psychological approach that explores the origins of human appreciation. Santayana's central thesis—articulated in his seminal work *The Sense of Beauty* (1896)—defines beauty as "pleasure objectified." From this perspective, beauty is no longer viewed as a property inherent in external objects independently; rather, it is a positive, intrinsic, and subjective value bestowed upon the external world by human consciousness, merging psychological pleasure with sensory perception to transform it into an objective aesthetic experience.

This naturalistic and psychological orientation emerged through Santayana's critical re-examination and intellectual engagement with three major philosophical currents that had dominated the history of aesthetics for centuries.

The researcher concluded that "Santiana" successfully re-established the direct human experience and provided a comprehensive, natural, and psychological perspective that explores aesthetic value as a product of the human being's organic and sensory engagement with the physical world .

Keywords: Santayana, Aesthetic values, Aesthetics.

"Articles published in *Univ Zawia Rewaq Alhkma* J are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License."

فلسفة القيم الجمالية عند جورج سانتيانا

افطيمة داعوب

قسم الفلسفة . كلية الآداب . جامعة الزاوية– الزاوية . ليبيا

البريد الإلكتروني: af.daoub@zu.edu.ly

أوركيد /orcid.org:0009-0002-3981

تاريخ الاستلام:2026/10/01م . تاريخ القبول:15 /2026/10 . تاريخ النشر: 08/ 11 / 2026

ملخـــــــص

تُعد فلسفة القيم الجمالية عند المفكر والفيلسوف جورج سانتيانا (1863–1952م) واحدة من أبرز المحطات التحولية في تاريخ الاستاطيقا (علم الجمال) الحديث، إذ نجح في نقل البحث الجمالي من التجريد الميتافيزيقي المثالي إلى مقاربة طبيعية ونفسية تبحث في أصل التذوق الإنساني، وتتأسس الأطروحة المركزية لسانتيانا– والتي صاغها في كتابه العُمدة "الأساس بالجمال" (1896)– على تعريف الجمال بوصفه (متعة شُخصت في موضوع)، ومن هذا المنطلق لم يعد الجمال عنده خاصية كامنة في الأشياء الخارجية بشكل مستقل، بل هو قيمة إيجابية ذاتية، وجوهرية يضفيها الوعي الإنساني على العالم الخارجي، حيث يدمج المتعة النفسية بالإدراك الحسي ليحولها إلى تجربة ذوقية موضوعية.

وقد تبلور هذا الاتجاه الطبيعي والنفسي عند سانتيانا عبر مراجعة نقدية ومواجهة معرفية مع ثلاثة اتجاهات فلسفية كبرى هيمنت على تاريخ علم الجمال لقرون.

وقد توصلت الباحثة إلى نتائج من أهمها: أن سانتيانا قد نجح في إعادة الاعتبار للخبرة الإنسانية المباشرة وأسس لمنظور طبيعي وسيكولوجي متكامل، يبحث في القيمة الجمالية باعتبارها نتاجاً للاشتباك العضوي والحسي للإنسان مع عالمه المادي.

كلمات مفتاحية: سانتيانا ، القيم الجمالية ، الاستاطيقا .

مقدمة

يُمثل علم الجمال الفلسفي (الاستاطيقا) أحد أبرز الحقول المعرفية التي واجهت مأزقاً ابستمولوجياً طويلاً في محاولة ضبط طبيعة القيم الجمالية، وموقعها بين البنى العقلية والمجردة والممارسات الأخلاقية المعيارية، ومع صعود النزاعات الطبيعية والواقعية في الفلسفة المعاصرة، برز الفيلسوف الأمريكي ذو الأصول الإسبانية جورج سانتيانا (1863–1952م)، كأحد أهم المنظمين الذين أعادوا صياغة الفلسفة الجمالية، مخرجاً إياها من فلك الميتافيزيقا المثالية المعتادة إلى آفاق الفينومينولوجيا السيكولوجية والنزعة الطبيعية، ففي أطروحته التأسيسية (الإحساس بالجمال) لم يقف سانتيانا عند حدود التوصيف الحسي، بل قدم ثورة اكسيولوجية (قيمية) أعاد فيها تفكيك وتحديد التخوم الفاصلة بين مجالات الوعي الإنساني المختلفة.

وتكتسب فلسفة سانتيانا الجمالية خصوصيتها الفردية من خلال اشتباكها النقدي والمعرفي مع المدارس الجمالية الكلاسيكية، فبينما غرقت المدرسة المثالية الكانطية في مفهوم (النزاهة المطلقة) وجعلت الجمال حكماً عقلياً مفارقاً، وعمدت الفلسفات الأخلاقية واللاهوتية على رهن الفن بالغايات المعيارية والتعليمية، جاء سانتيانا ليعيد الاعتبار للذة الحسية، عبر أطروحته الشهيرة بأن (الجمال لذة تمت موضعتها)، هذا التحول الاكسيولوجي فرض عليه راديكالية منهجية لترسيم الحدود بين الأحكام، فميز بشكل حاسم بين الحكم العقلي المعرفي القائم على الأدائية والرمزية والسببية وبين الحكم الأخلاقي القائم على دفع الضرر والسلب والالتزام الاجتماعي، لينتصر في النهاية للحكم الجمالي بوصفه تجلياً للحرية الإنسانية الخالصة والإيجابية المحضة التي تجعل الحياة جديرة بأن تعاش.

إشكالية البحث:

تتحدد المشكلة البحثية لهذه البحث في تساؤل محوري مفاده: كيف استطاع جورج سانتيانا صياغة نموذج تفسيري بديل للقيم الجمالية يقطع مع المدارس الجمالية الكلاسيكية والمثالية؟ وكيف تتبدى ملامح التميز الأبستمولوجي والانطولوجي للحكم الجمالي في فلسفته عند وضعه في خط مواجهة ومقارنة مباشرة مع كل من الحكمين العقلي والأخلاقي؟ وما هي التخوم الفاصلة إكسيولوجياً بين (سلبية) الحكم الأخلاقي القائم على الاضطرار و(إيجابية) الحكم الجمالي القائم على وفرة اللذة؟

منهج البحث

يعتمد البحث على المنهج التحليلي النقدي لاستنطاق النصوص الأساسية لسانتيانا ومراجعاتها للمدارس الكلاسيكية، كما يتبع المنهج المقارن كأداة رئيسية لتحديد أبعاد التباين والاتصال بين الأحكام الثلاثة: العقلي، الأخلاقي، الجمالي.

وبناء على إشكالية البحث والمنهج المتبع تم تقسيم البحث إلى:

أولاً: الاتجاهات الفلسفية ومواقفها من علم الجمال

إذا كان أحد النُقاد الفرنسيين قد استطاع يومًا أن يقول لبرجسون(إنك يا سيدي الأستاذ فنان أكثر منك فيلسوفًا)، فإن الفيلسوف الإسباني جورج سانتيانا هو أيضًا بلا شك فنان موهوب أكثر مما هو فيلسوف فن (إبراهيم، 68)، وتكفي الكلمات التي صرح بها المؤرخ(ول ديورانت) حيث قال:" لم تلبس الفلسفة ثوباً جميلاً منذ أفلاطون كما لبسه من جمال اللفظ وروعة الشعر في أسلوب سانتيانا"(ديورانت،1988، 604)، وعلى الرغم من إسهام سانتيانا في تحرير كتاب: (مقالات في الواقعية النقدية)، إلا أنه كتب عددًا كبيرًا من القصائد الشعرية والروايات الأدبية، واهتم أيضًا بكتابة الكثير من المقالات، والتعليق على العديد من الكتب والمؤلفات، فكان (ناقدًا أدبيًا) من الطراز الأول بشهادة الكثير من رجالات الأدب، وأما في علم الجمال فقد قدم لنا سانتيانا كتابين مهمين، الأول : ظهر سنة 1896 بعنوان: (الإحساس بالجمال) Sense of Beauty، والثاني: ظهر سنة 1905 (ضمن مجموعة حياة العقل) بعنوان: (العقل في الفن) Reason in Art. ولكن سانتيانا لم يقف في اهتمامه بالفن عند هذين الكتابين، بل إننا لنجده يتعرَّض للجمال، والفن، والشعر، في العديد من مقالاته ودراساته.

ويعد الجمال أحد الصفات التي تبعث السرور والرضا في النفس(Khamis.2025)، لهذا يرى سانتيانا أن كل ما قد كُتب عن الجمال يمكن تقسيمه إلى فئتين، أولاهما: كتابات فسر فيها الفلاسفة الحقائق الجمالية على ضوء مبادئهم الميتافيزيقية وجعلوا فيها نظرياتهم في الذوق نتيجة أو تذييلًا لمذاهبهم العامة، وثانيهما: كتابات حاول فيها الفنانون والنقاد أن يتفلسفوا عن طريق تعميمهم إلى حد ما قواعد الفن أو تعليقات المشاهدين المرهفين، أما ما بين هذين الطرفين فقد ظل التفكير في التجربة الجمالية ناقصًا مفككًا ، وظلت البحوث في علم الجمال بلا تأثير عملي غالبًا، لأن الذين قاموا بها لم تتوافر لديهم الظروف المواتية، إذ كانوا عادةً من الميتافيزيقيين ذوي الجرأة في الرأي، الذين لم يكونوا نُقادًا ذوي كفاية، فعرضوا لنا مبادئ عامة غامضة مستوحاة من أجزاء أخرى من مذاهبهم الفلسفية وجعلوها شروطًا للبراعة الفنية ولجوهر الجمال، وفي الظروف التي أدت إلى انعدام التفكير الجمالي أو فشله ما تتميز به ظاهرة الجمال من صفة ذاتية؛ فالإنسان متحامل على ذاته– فيما يقول سانتيانا– ويبدو أن كل ما يصدر عن عقله إنَّمَا هو غير حقيقي، أو غير مهم نسبيًا، وبالتالي، فنحن ما زلنا بحاجة إلى أن نتبين أن مشاعرنا الذاتية (مثل الخيال والعاطفة) التي نحتقرها هي مصدر كل ما في عالم الإدراك الحسي من قيمة، إن لم تكن كذلك مصدر وجوده(سانتيانا،2011، ص38، 39)، فالإحساس بالجمال يتأثر بالعديد من العوامل كالقدرة على الانتباه وصحة البدن والمزاج والحالة النفسية، بالإضافة إلى تأثير عاطفة الحب التي نستمد منها السعادة(بركاوي،2023، 28)، لذلك يعتقد سانتيانا إن جميع الوظائف الإنسانية يمكنها أن تخدم الإحساس بالجمال، لكنها تتفاوت فيما بينها في مدى تقديم هذه الخدمة، ولهذا فإن السمع والبصر والمخيلة هي أكثر

الوظائف التي تقدم خدمة للإحساس بالجمال(الحسين، 2019، 680)، ومع ذلك فالإحساس العام بعدم أهمية كل ما هو عاطفي بحت وبحقارته هو من القوة بحيث إن أولئك الذين اهتموا اهتمامًا جديًا بالمشكلات الخلقية وأحسوا بقيمتها غالبًا ما حاولوا اكتشاف خير خارجي تكون مشاعرنا الخلقية عبارة عن إدراكات له، أو كشف عنه. ويبدو أن أولئك الفلاسفة– في رأي سانتيانا– يشعرون بأن الأحكام الخلقية والجمالية يمكن اتهامها بالتفاهة التامة ما لم تكن تعبيرًا عن حقيقة موضوعية لا مجرد تعبير عن الطبيعة الإنسانية. ولكن ليس الحكم تافهًا لأنه يقوم على أساس من عواطف الإنسان، وإنما هو العكس، فالتفاهة إنَّمَا هي التجرد عن مواضع اهتمام الإنسان، ولا تكون الأحكام والآراء تافهة إلا حينما تضل بنا بعيدًا عن مجال التحقيق، وحينما لا يكون لها أية وظيفة في تنظيم الحياة أو إثرائها(سانتيانا، 40).

وسانتيانا يمضي إلى حد أبعد من ذلك فيقرر أن علميْ الأخلاق والجمال قاسيا كثيرًا نتيجة التحامل ضد ما هو ذاتي. بل كان من الممكن لهما أن يقاسيا أكثر لو لم تكن مادتهما تحتوي شيئًا موضوعيًا من بعض وجوهه، فموضوع علم الأخلاق إنَّمَا هو السلوك بقدر ما هو العواطف، ولذلك فهو علم يهتم بدراسة علل الأحداث والنتائج المترتبة عليها، كما يهتم بدراسة أحكامنا القيمية عليها، أما علم الجمال فغالبًا ما ينزع إلى أن يدخل في نطاقه تاريخ الفن وفلسفته، كما ينزع إلى إضافة كثير من الوصف والنقد إلى ما فيه من تفكير نظري عن تأثرنا بالجمال.

ولا يكتفي سانتيانا بالتمييز بين موضوعيْ علم الأخلاق وعلم الجمال، بل هو يضيف إلى ذلك أيضًا، عناصر ثلاثة مختلفة في كل من الأخلاق والجمال وطرقًا ثلاثة متباينة في تناول الموضوع (سانتيانا، 41، 42)، فالعنصر الأول: هو نشاط الملَكة الخلقية أو الجمالية ذاتها، أي عملية إصدار الحكم والتعبير عن المدح والذم وضرب المثل، وليست هذه مسألة علم وإنما هي مسألة تعتمد على الشخصية، والحماسة ودقة التمييز وإرهاف الشعور، وهذا هو النشاط الجمالي أو الخلقي، في حين أن الأخلاق والجمال بوصفهما علمين هما نشاط عقلي موضوع النشاط الجمالي أو الخلقي، والطريقة الثانية تتلخص في التفسير التاريخي للسلوك أو للفن بوصفه جزءًا من علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وهي محاولة اكتشاف الظروف التي تخلق نماذج الشخصية المختلفة وشتى أنواع السياسة ومفهومات العدالة ومدارس النقد والفن، وينتمي جزء كبير مما كتب في علم الجمال إلى هذا النوع الثاني من التفكير، فقد وجد الناس عادةً أن فلسفة الفن أكثر جاذبية من سيكولوجية الذوق، لا سيما أولئك الذين لم يُثر اهتمامهم الجمال ذاته بقدر ما أثارته مسألة الغريزة الفنية لدى الإنسان بما فيها من غواية، والمظاهر المتباينة التي اتخذتها خلال التاريخ، أما الطريقة الثالثة في تناول الأخلاق والجمال فهي طريقة سيكولوجية (على حين أن الطريقة الأولى تعليمية، والثانية تاريخية)،فهي تتناول بالدرس الأحكام الخلقية والجمالية بوصفها ظاهرة عقلية ونتاجًا للتطور العقلي. والمشكلة هنا هي مشكلة فهم مصدر هذه المشاعر وظروفها وعلاقتها بكل تركيبنا. ولن يتأتى لنا– فيما يقول سانتيانا– أن نفهم هذا النوع الثالث في تناول الأخلاق والجمال، لو أننا حاولنا

فرض تذوق خاص أو تتبع تاريخ الفن والنقد، فهذا بحث نظري يخلو من صفة التعليم المباشر، وبالتالي سنقصر المناقشة على طبيعة الأحكام الجمالية وعلى العناصر التي تتألف منها.

ويلاحظ سانتيانا أن من الفلاسفة والكُتّاب من يضيّق مجال الفلسفة الجمالية تضيّقًا يقصرها على (النقد الفني)، بل لا يزال هذا الاسم يستخدم الآن لوصف التقدير للأعمال الفنية تقديرًا تؤيده الحجة العقلية، إلا أننا لن نستطيع– فيما يقول سانتيانا– أن نصف نشوتنا بالطبيعة بأنها نقد. فنحن لا ننقد غروب الشمس وإنما نحسه ونستمتع به(سانتيانا،2011، 43). وإذا استخدمنا لفظة (النقد) في هذا المجال فإننا بذلك نؤكد– أكثر مما ينبغي– عنصر الحكم الواعي والمقارنة بالمعايير ، ولكن الجمال لا يدرك عادةً على هذا النحو وإن كان يوصف في هذه الحدود غالبًا. خصوصًا وأننا– فيما يرى سانتيانا– لا نبدي إعجابنا بما هو بديع حقًا في الطبيعة والفن نتيجة تطبيق قاعدة معينة وإنما هو العكس، فهذه الموضوعات الرائعة هي التي تعطينا معيارًا أو مثلًا يقيس به النقاد الأعمال الدنيا (سانتيانا، 52)، ومعنى هذا علينا أن نستعرض آيات الجمال في الطبيعة أولًا، لنستخلص منها أي القواعد ينبغي تطبيقها بعدئذٍ على صناعة الفنون.

وكذلك يلاحظ سانتيانا أن من الفلاسفة ما يوسع مجال الفلسفة الجمالية أكثر مما ينبغي، فيستخدم لفظة أكثر تفقهًا، هي لفظة (الاستطيقا) (Aesthetics) ومعناها نظرية الإدراك الحسي، أو التأثرية. ولكن إذا كانت كلمة (النقد) أضيق مما ينبغي لكونها لا تشير إلا إلى أحكامنا الواعية، فإن لفظة (الاستطيقا)– فيما يقول سانتيانا– ذات مدلول أوسع من اللازم يشمل كل ضروب اللذة والألم إن لم يشمل شتى أبواب الإدراك الحسي (سانتيانا، 53)، ولم يجد فيلسوفنا أدنى صعوبة في الجمع بين الرأيين السابقين: رأي أولئك الذين يجعلون الفلسفة الجمالية نقدًا فنيًا، ورأي هؤلاء الذين يجعلونها مجرد إدراك حسي، فيقول: "النقد الفني يتضمن الحكم في حين تتضمن الاستطيقا الإدراك الحسي، ولكي نحصل على المجال الذي يشترك فيه الاثنان والذي توجد فيه الإدراكات الحسية النقدية أو الأحكام التي هي إدراكات حسية يلزمنا أن نوسع من تصورنا للنقد الواعي بحيث يشمل تلك الأحكام القيمية التي هي غريزية ومباشرة، أي بحيث يشمل حالات اللذة والألم، وفي نفس الوقت يتحتم علينا أن نضيق من تصورنا للاستاطيقا بحيث نستبعد منها كل إدراك ليس تذوقًا، ولا تقديرًا، ولا يجد قيمة في موضوعه. وهكذا نصل إلى مجال الإدراك النقدي أو التذوقي"(سانتيانا، 53)، ومن هذا الجانب المشترك بينهما يظفر سانتيانا بنظريته في الجمال، إذ يرى إن طبيعة الجمال كائنة في الإدراك الحسي الذي يصاحبه حكم نقدي، ولذلك فالإدراك الحسي الممتزج بالحكم النقدي يعد إدراك للقيم.

وسانتيانا يمضي إلى حد أبعد من ذلك فيقرر أنه "إذا استثنينا أنفسنا وميولنا الإنسانية فلن نجد في هذا العالم الآلي أي عنصر من عناصر القيمة"(سانتيانا، 55)، لذلك فنحن حينما نستبعد الوعي فإنما نستبعد إمكانية القيمة أيضًا.

وعلى ذلك فإن القيمة لا تزول من العالم بزوال الشعور فحسب، ولإثبات ذلك يقول سانتيانا:" نستطيع أن نتصور كائنات إنسانية ذات طابع عقلي صرف، عقولًا تنعكس فيها تغيرات الطبيعة بلا انفعالات. ففي إمكانها ملاحظة كل الأحداث، إلا أن كل ذلك يحدث بلا أي أثر للرغبة أو اللذة أو الأسف... إلخ، وبالإجمال يمكننا تصور عالم يتألف من الفكر ويخلو تمامًا من الإرادة. في هذه الحالة لا بد وأن تختفي القيمة تمامًا كما اختفت في حالة انعدام الوعي تمامًا"(سانتيانا، 56)، وبالجملة فلكي يوجد الخير في أي صورة من صوره لا يلزم وجود الوعي فحسب وإنما يلزم وجود الوعي العاطفي، فالملاحظة وحدها لا تكفي وإنما لا ينبغي أن يوجد التذوق إلى جانبها.

وأخيرًا يقرر سانتيانا هذه البديهية الهامة لكل فلسفة أخلاقية والقاضية في الوقت نفسه على طائفة من متناقضات الفكر التي ما تزال تلح علينا؛ وهي أنه لا توجد أية قيمة منفصلة عن تقديرنا لها، كما أنه لا يوجد أي خير منفصل عن تفضيلنا له على عدمه أو على نقيضه، فجوهر السمو وأساسه إنَّمَا هو في التقدير والتفضيل وهنا يستعير سانتيانا عبارة مشهورة من عبارات اسبينوزا(1632-1677) فيقول: "نحن لا نرغب في الشيء لكونه خيرًا وإنما يكون الشيء خيرًا لأننا نرغب فيه"(سانتيانا، 56)، ولن يتأتى لنا– فيما يقول سانتيانا– أن نحدد القيمة في نهاية الأمر عن طريق الأحكام اللفظية (لا حكمًا خلقيًّا أو جماليًّا) التي غالبًا ما تكون أداة مفيدة للتفكير فقط، فالقيم تنبع من الاستجابة المباشرة للدافع الحيوي، وهي استجابة لا يمكن تفسيرها أو تحليلها، كما أنها تنبع من الجزء اللا عاقل من طبيعة الإنسان. فالجزء العقلي من طبيعتنا هو في جوهره نسبي، إنه يقودنا من المعطيات إلى النتائج أو من الجزئيات إلى الكليات، ولكنه لا يمدنا أبدًا بالمعطيات التي يعمل بها. فإذا قررنا لحالة ما من حالات التفضيل أو لمبدأ ما من المبادئ أنه مطلق وأولي، فإننا نقرر بذلك أنه لا عقلي، لأن الاستدلال والوساطة والتركيب من وظائف العقل الجوهرية (سانتيانا، 57).

وهكذا يخلص سانتيانا إلى أن الجمال هو نوع من القيمة، وما ينطبق على القيمة العامة ينطبق أيضاً على القيمة الخاصة، لذلك فإن أول خطوة يمكن اتخاذها لتعريف الجمال هي أن نستبعد الأحكام العقلية، وأحكام الواقع.

ويسخر سانتيانا من الذين يتظاهرون بالعلم لإحلال أحكام الواقع محل الأحكام القيمية، فيرى إنه حينما نتناول العمل الفني، فإننا لا نتناوله التناول الجمالي، فاكتشاف تاريخ ظهور العمل الفني أو اسم مؤلفه له أهميته في ميادين أخرى، ولكنه لن يؤثر في تقديرنا الجمالي له إلا من بعيد، عن طريق إضافة ارتباطات معينة إلى الأثر المباشر الذي يولده العمل في نفوسنا، ولن يكون لهذه الظروف أية أهمية إذا لم يكن للعمل ذاته أهمية تذكر أو إذا لم يولد الأثر المباشر في النفس. وحينما يمتدح شاعر القصر مقطوعته الغنائية في مسرحية موليير(كاره البشر)، ويقول: إنه كتبها في ربع ساعة. يجيبه كاره قائلًا: "ألا ترى يا

سيدي أن الزمان لا علاقة له بالموضوع؟. وكذلك نستطيع- في رأي سانتيانا- أن نقول للناقد الزائف أو المتظاهر بالعلم الذي يتحول إلى عالم الآثار: أرنا العمل الفني ذاته واترك التاريخ جانبًا(سانتيانا،59).

وثمة باحثون آخرون قد أولوا إحلال الوقائع محل القيم ولكن في اتجاه مضاد للاتجاه السابق، وأصحاب هذا الرأي يقررون أن عكس الواقع هو المعيار الوحيد للسمو الفني، فكثير من المشاهدين من أنصاف المدربين- فيما يرى سانتيانا- ينتقدون نتاج الفنان البسيط أو الخيالي ويتهكمون عليه، لأنه كما يقولون بحق لا يراعي في فنه نسب الواقع، والمعيار الذي يتضمنه حكمهم هو أن الصدق في محاكاة الأصل هو شرط الجمال دائمًا، وسانتيانا يرد على هذا الزعم بقوله: "حقًّا إن الصدق عنصر من عناصر التأثير، وفيما يتعلق بالموضوعات المألوفة لدينا يكاد يكون لا غنى عنه لأن عدم توافره يُحدث خيبة وعدم الرضا، وهما لا يتفقان والمتعة التي يرمي إليها الفنان... ولكن ليس الصدق فضيلة إلا لأنه على هذا النحو عامل من عوامل المتعة التي يولوها العمل في نفوسنا؛ ولهذا فله نفس الأهمية التي نجدها في عناصر التأثير الأخرى" (سانتيانا،59). بالإضافة إلى ذلك يرى سانتيانا إن من يحاول أن يرفع من مكانة الصدق ويجعلها العنصر الوحيد الذي لا غنى عنه، يكون قد برهن بالفعل على ضعف قدراته الجمالية، لذلك فمن وجهة نظره، أننا حين نرى قدرًا من الصدق في المحاكاة، فإن ذلك مدعاة لاغتباطنا، وشعورنا بلذة مشروعة تبعث في نفوسنا فنون المحاكاة جميعًا، فالصدق والواقعية خير من الوجهة الجمالية، ولكنهما غير كافيين وحدهما. ولما كان الصدق وحده غير كافٍ من الناحية الجمالية، فإن ذلك يدلنا على تفاوت قيمة الصدق في العلم والفن (سانتيانا،60)، وبالتالي فإن العلم هو استجابة لرغبتنا في المعرفة وفيه نطالب بالصدق كله ولا شيء غير الصدق، بينما الفن استجابة لرغبتنا في التسلية وفي إثارة حواسنا وخيالنا، ولذلك فالصدق يدخل فيه فقط بمقدار خدمته لهذه الغايات(سانتيانا،61) .

وجملة القول: إن القيمة العلمية للصدق ذاتها ليست مطلقة، إذ إنها تقوم على اعتبارات بعضها عملي وبعضها الآخر جمالي. ومن هاتين الفائدتين: الفائدة العملية والفائدة الخيالية يستمد الصدق كل ما له من قيمة.

ثانيًا: طبيعة القيم الجمالية

يمكن أن نميز بين الأحكام الجمالية والخلقية ، والأحكام العقلية؛ فالأحكام الجمالية والخلقية أحكام قيمية على حين أن الأحكام العقلية أحكام واقعية، وإذا كان لها أية قيمة فإن قيمتها مستمدة من غيرها، فالمسوغ الوحيد للحياة العقلية بأسرها هو في ارتباطها بلذاتنا وآلامنا، فالحكم الجمالي هو حكم مباشر بين الذات والموضوع، وتتطلب عملية الارتقاء بالإحساس الجمالي قدراً من المهارة حتى تحقق ما تقتضيه التجربة الجمالية(عبده، 1999، 74)، فأحكام العقل إذن تختلف عن الأحكام الخلقية والجمالية معًا؛ فالأولى مدارها (الوقائع)، والثانية مدارها (القيم) التي يضيفها الإنسان إلى تلك الوقائع، ومما لا شك فيه، العلاقة

وثيقة بين الأحكام الجمالية والأحكام الخلقية، بين ميداني الجمال والخير، غير أن التميز بينهما مهمٌ أيضًا. ويميز سانتيانا بين القيم الجمالية فصنفها إلى قيم أخلاقية وقيم عملية، ولهذا نراه يقرر أولًا: أن القيم الجمالية قيم إيجابية، قائمة على خبرة مباشرة بالحسن وبالخير، وتحمل قيمتها في ذاتها، وتستهدف المتعة المباشرة، في حين أن القيم الأخلاقية قيم سلبية تقتصر مهمتها على اجتناب الألم ومحاربة الشر والنهي عنه، فهي مجرد (أدوات) تُطلَبُ في العادة لغايات أو (مقاصد). ومعنى هذا أن ثمة ضرورات عملية هي التي تخلع على النشاط الأخلاقي كل ما له من قيمة، في حين أن قيمة النشاط الفني مستقلة تمامًا عن شتى الظروف العملية (فردية كانت أم اجتماعية). وهذا هو السبب في أن النشاط الفني لا يتجلى على حقيقته إلا حينما تختفي مطالب الحياة المُلحة، وضرورات التكيف العاجلة، فيصبح عندئذ في وسع الإدراك الحسي أن يمارس نشاطه في تلقائية، وحرية. (سانتيانا، 62-64)، ومن هنا فإن الفارق بين القيم الجمالية من جهة، والقيم الأخلاقية والعملية من جهة أخرى، إنَّمَا هو كالفارق بين اللعب من جهة، والعمل من جهة أخرى، ولهذا جاز لنا أن نقول عن (الأخلاق) وأحكامها أنها أقرب إلى طبيعة (العمل) الجاد، ما دام تعريف هذا العمل هو أنه يؤدى وفقًا لضرورة، وابتغاءً لمنفعة، وأما (الإدراك الجمالي) فأدخل في باب (اللعب)، لأنه كاللعب إطلاق لطاقة مختزنة لا تتطلبها ضرورات الحياة ومنافعها، فنراها تنبثق انبثاقًا تلقائيًا لا افتعال فيه ولا تصنُع. وليس معنى هذا أن كل لعب لا بد بالضرورة من أن يكون مقترنًا بالجمال، أو أن كل لذة لا بد بالضرورة من أن تكون لذة جمالية، وإنما كل ما نحن حريصون على تقديره– كما يرى سانتيانا– هو أن الخبرة الجمالية لاتعد ضرباً من الترف أو ما نرغب فيه، إنما تمثل نشاطًا متحررًا ينمي قدرة الإنسان على إدراك الجمال في محيطه(مصطفى، 2012، 396)، وبالتالي فإنها تقترب في كثير أو قليل من ذلك النشاط الحرّ الذي اعتدنا تسميته باسم (اللعب)، وهي تسمية مناسبة بلا شك، وذلك لأنه نشاط تلقائي ولا يقوم به الإنسان تحت وطأة الضرورة الخارجية، وبهذا المعنى أيضًا، يصبح اللعب مساويًا للحرية (على حد تعبير سانتيانا). ومن هنا فقد اقترنت الأخلاق بالنشاط الجدي الشاق، بينما اقترن الفن باللعب أو النشاط الحر المنطلق. والحق أن سانتيانا» قد أخذ عن شيلر Schiller فكرته في التوحيد بين الفن واللعب، على اعتبار أن الطبيعة البشرية إنما تتحقق على الوجه الأكمل في لحظات اللعب، لا في لحظات العمل. ولكن سانتيانا لم يقتصر على القول بأن النشاط الفني نشاط انطلاقي حر، بل هو قد حرص أيضًا على إعطاء الصدارة للقيم الفنية الحرة الإيجابية المكتفية بذاتها، على القيم الأخلاقية المقيدة السلبية المفتقرة دائمًا إلى غيرها. ولما كانت القيم الجمالية مستقلة تمامًا عن المنفعة والأخلاق، فليس بدعًا أن نجد فيلسوفنا ينسب إليها قيمة أعظم باعتبارها مصدرًا لضروب أنقى وأكمل من (الإشباع)، ويمضي سانتيانا إلى حد أبعد من ذلك فيحاول إقامة أخلاق جمالية مبعثها نفور الضمير من القبح أو الدمامة التي ينطوي عليها كل سلوك أخلاقي لا يراعي أمثال هذه المبادئ، وهكذا يعود سانتيانا إلى الفكرة اليونانية القديمة التي كانت تجمع بين الخير والجمال، لكي يقرر أن المطلب الجمالي الذي يقضي بالخير الأخلاقي إنَّمَا هو أجمل زهرة أنتجتها الطبيعة البشرية(سانتيانا،

71)، ولو قُدر للتجربة الجمالية التي يعيشها المرء في بعض اللحظات الممتازة من حياته أن تلقي ظلالها على كل وجوده، لكان في استطاعته أن يصل إلى فن جديد من فنون الحياة يكون بمثابة تفتح تام لكل إمكانيات الطبيعة البشرية. وهنا يكتسب «مذهب اللذة» طابعًا جماليًا على يد سانتيانا فتصبح كل فضيلة حقيقية إنَّمَا هي تلك التي يمكن أن تندمج في لذة جمالية، بحيث يتسبب عنها تزايد إحساس الموجود البشري بغبطة الحياة، وتبعًا لذلك فإنه يستوي في نظر سانتيانا أن نقول إن الموضوع جميل، أو أن نقول إننا سعداء، ما دام كل موضوع جمالي إنَّمَا هو تكنيك لذة!(Duron.1950.P.306).

ولكن بعد هذا التمييز الدقيق بين الأحكام العقلية والخلقية، وبين الأحكام الجمالية، لا يكفي أن نقول عن الإدراك الجمالي أنه متميز باللذة الإيجابية المباشرة التي يحسها الرائي أو السامع، لأنه إذا كان كل إدراك جمالي لذيذًا، فما كل لذيذ إدراكًا للجمال، وإذن فعلينا أن نسأل: ما الطابع الذي يميز اللذة الجمالية عن غيرها؟ يرى سانتيانا، إن أقل اللذات شبهًا بإدراكات الجمال هي اللذات الجسدية، ولا نقصد باللذات الجسدية بالطبع اللذات الجسدية التي تتعلق بالجسد فحسب، وإنما اللذات الجسدية تشمل هذه، كما تشمل أيضًا جميع صور الوعي والعناصر التي يتألف منها أيضًا. والحق إن اللذات الجمالية شروطها المادية (فهي تعتمد على نشاط العين والأذن وعلى الذاكرة وغيرها من الوظائف التصورية للذهن)، غير أننا لا نربط هذه اللذات بمصادرها المادية اللهم إلا في الدراسات الفسيولوجية، فالصور التي ترتبط بها اللذات الجمالية ليست صور علتها الجسدية، بينما اللذات التي نسميها جسدية ونعتبرها من اللذات الدنيا هي تلك اللذات التي توجه اهتمامنا إلى أحد أجزاء الجسد والتي يتكون فيها العضو الذي تنشأ فيه أكثر الموضوعات وضوحًا في الوعي، فاللذائذ الجمالية كاللذائذ الجسدية سواء في كونها تتخذ البدن مقرًا لها، ولكن الفرق بينهما هو أنه بينما تتبلور اللذة الجسدية حول عضو معين من البدن، نرى اللذة الجمالية شائعة لا تتقيد بعضو خاص؛ كإنما هي حساسية شفافة تنقلنا من حالة النشوة الداخلية إلى الشيء الخارجي الذي هو مصدرها نقلًا مباشرًا، دون الوقوف في منتصف الطريق عند هذه الحاسة المعينة أو تلك؛ وفي هذا المعنى قولنا إن الإحساس بالجمال يحرر صاحبه من قيود الجسد، لأنه وإن يكن حالًا فيه، إلا أنه لا يتقيد بحاسة معينة من حواسه، ويعبرُ بصاحبه إلى الشيء الخارجي الجميل، دون أن يشعر بأي تغيير أو تأثير ملحوظ في الجسد، في حين أن الانغماس في الجسد والتقيد بحدود عضو من الأعضاء يخلعان على الوعي إحساسًا بالأنانية أو الغلظة أو الفظاظة (سانتيانا،76، 77).

وها هنا تأتي الخاصة المميزة الفاصلة التي نكمل بها تحديدنا لمعنى الجمال، فإلى جانب كونه يتميز بأنه إدراك لقيمة، لا إدراك لواقع كما هو الحال في العلم؛ وبأنه إدراك إيجابي مباشر لا إدراك للجانب السلبي بطريق غير مباشر، كما هو الحال في الأخلاق؛ أقول إنه إلى جانب هذا تراه يتميز بأنه يتضمن إخراجًا للنشوة الباطنية الذاتية إلى الشيء الخارجي ليضيفها إليه وكأنها جزء منه.

ولكن، إذا كان الجمال متعة أو لذة، أفلا يمكن أن نميز (المتعة الجمالية) أو (اللذة الفنية) عما عداها من متع أو لذات؟ هنا يهاجم سانتيانا بعض النظريات التقليدية في الجمال، فيقرر أن الكثيرين قد توهموا بأن الفرق بين اللذة والإحساس بالجمال هو أن المتعة الجمالية تخلو من الأنانية، قائلين إننا في مجال اللذات الأخرى نشبع حواسنا وانفعالاتنا ورغباتنا، ولكن في حالة تأمل الجمال نسمو على ذواتنا، فتهدأ ثورة انفعالاتنا ونكون سعداء في إدراكنا لخير لا نسعى إلى امتلاكه، فلا ينظر الرسام إلى ينبوع الماء نظرة الرجل العطشان، ولا ينظر إلى امرأة جميلة نظرة الحيوان الذي يئج بالشهوة، ويزعم هؤلاء المفكرون إذن أن ما يميز اللذة الجمالية هو في تنزهها عن الأهواء الشخصية. ولكننا– فيما يقول سانتيانا– لا نرى في ذلك تميزًا لطبيعة اللذة الجمالية، بل وصفًا لحدتها ودقتها، ولا يقنع بهذا التميز فيما يبدو إلا أولئك الذين هم دون غيرهم حساسة إزاء الجمال (سانتيانا،78).

والنقطة الثانية هي أن خلو اللذة أو المتعة الجمالية من المصلحة (وهو الشيء الذي زعمه هؤلاء الفلاسفة) ليس في الحقيقة شيئًا جوهريًا– فيما يقول سانتيانا– وكأن المرء حين يجد نفسه بإزاء موضوع جمالي فإنه لا يفكر مطلقًا في السعي نحو امتلاكه أو العمل على الظفر به. حقًّا إن تقدير أو تذوق أية لوحة فنية من اللوحات لا يختلط في العادة بالرغبة في شرائها، ولكن من الطبيعي أن تكون هناك علاقة وثيقة بين الحافزين، أو يجب أن يكون وثيق الصلة بهذه الرغبة، كما أنه يمهد لها، فليس ما يمنعنا من القول بأننا نشتهي اللذات الجمالية كما نشتهي غيرها من اللذات، إن لم نقل بأن صعوبة الحصول على بعض اللذات الجمالية قد تتسبب في زيادة قيمتها في نظرنا، كما هو الحال بالنسبة إلى الأحجار الكريمة سواء بسواء. وما دامت اللذة الجمالية– مثلها في ذلك كمثل كل ما عداها من لذات– إنَّمَا هي في جوهرها لذات شخصية، فلا موضع للقول– فيما يرى سانتيانا– بأنها أقل من غيرها أنانية أو نفعية (سانتيانا،79ـ81).

وأما القول بأن اللذات الجمالية لذات «كلية» أو «شمولية» (كما يزعمون)، بدعوى أن المرء حين يحكم على أي شيء بأنه جميل، فإنه يعني بذلك أن هذا الشيء «جميل في ذاته»، وأنه لا بد من أن يبدو كذلك في أعين الآخرين، فإن سانتيانا يرد عليهم بالعبارة التالية: إن الواقع يشهد بخلاف ذلك تمامًا، فمن المعروف أنه لا يوجد اتفاق كبير على الأمور الجمالية، والنزر الضئيل من الاتفاق الذي نجده بين الناس إنَّمَا يقوم على تشابههم في الأصل والطبيعة والظروف، هذا التشابه حيثما يوجد يؤدي إلى التشابه في جميع الأحكام والمشاعر، ومنها الأحكام الجمالية أيضًا، ولكن هذا لا يعني أن ما يجده شخص معين جميلًا (يجب) أن يعتبره شخص آخر جميلًا أيضًا. إلا إذا كانت لهما نفس الحواس وكانا متشابهين في المزاج والارتباطات (إلى حد التطابق) فإنهما لا شك سيعتبران نفس الشيء جميلًا. أما إذا اختلفت طبيعتهما فإن الصورة التكوينية التي يجدها الشخص الأول ساحرة قد يعجز الثاني عن رؤيتها على الإطلاق، لاختلافه في تصنيف إدراكاته والتمييز بينها، ولذلك فقد لا يرى فيما يعتبره الأول كلًّا كاملًا إلا

جزءًا مبتورًا مشوهًا، أو مجموعة من الأشياء لا شكل فيها، فوحدات الأشياء ليست إلا وحدات من حيث الأداء والنفع. ومن المضحك– فيما يقول سانتيانا– أن نقول إن ما لا يستطيع الشخص رؤيته (يجب) أن يبدو جميلًا في نظره، فلكي يدرك الناس نفس الصفات لا بد أن تكون لديهم نفس الملَكات. ولكن لا يوجد شخصان لهما عين الملَكات بالضبط، كما أنه لا توجد للشيء الواحد نفس القيمة تمامًا في نظر شخصين. وبالجملة، فإن تنوع الأذواق في الميول وأساليب التربية الفنية دليل قاطع على استحالة الوصول إلى «أحكام كلية» في مضمار الجمال. ولو أننا سلمنا– على العكس من ذلك– بأن أحكامنا الجمالية هي دائمًا أحكام نسبية محلية، لكان في هذا التواضع ما يسهم لنا بالتلاقي مع غيرنا من البشر، بدلًا من الاقتصار على تجريم أحكامهم، وإدانة أذواقهم، ولا شك أن مثل هذا التسامح الجمالي إنَّمَا هو وحده الكفيل بإظهارنا على ما في تاريخ الفن من «روائع» تشهد باختلاف الأمزجة وتنطق بتعدد الأذواق (سانتيانا،81ـ 86).

وسانتيانا يمضي إلى حد أبعد من ذلك فيقرر أن المطالبة بالكلية في الأحكام الجمالية تنطوي على ما هو أكثر من مجرد الرغبة في تعميم آرائنا، إنها تعبير عن ظاهرة سيكولوجية غريبة وإن كانت معروفة جيدًا، ألا وهي ظاهرة تحويل عنصر من عناصر الإحساس إلى صفة في الشيء، وإذا كنا نقول أنه ينبغي للغير أن يروا مواضيع الجمال التي نراها، فإنما نقول ذلك لأننا نعتقد أن مواضيع الجمال هذه «توجد في الموضوع» نفسه مثل لونه ونسبه وحجمه. ويبدو لنا أن حكمنا ليس إلا مجرد إدراك لوجود خارجي واكتشاف لكمال حقيقي يوجد خارجنا. ولكن هذه فكرة مضحكة– فيما يقول سانتيانا– فالجمال «قيمة» لا نستطيع تصورها وجودًا مستقلًا عنا يؤثر في حواسنا فندركه نتيجة لذلك، فالجمال يوجد في الإدراك ولا وجود له في غير ذلك، والجمال الذي لا يُدرَك هو لذة لا تُحس، ومن ثم فهو تناقض (سانتيانا،87).

والحق أننا إذا كنا نخلع على تقديراتنا الجمالية طابعًا كليًا، فما ذلك إلا لأننا نتوهم أن ضروب الجمال التي نُعجب بها إنَّمَا هي باطنة في صميم الأشياء، لا في ذواتنا نحن. ولكننا لو عرفنا أن القيمة بطبيعتها ذاتية، لأدركنا أن تمسُكنا بمبدأ «موضوعية القيم» إنَّمَا هو ناشئ عن اختلاط انطباعاتنا بإدراكاتنا الحسية. ولكن هذا الوهم نفسه قد يعيننا على فهم طبيعة الإحساس بالجمال، فإن ارتباط إدراكنا الحسي للموضوع الملائم بذلك الإحساس السار المتولد عنه، هو الذي يجعلنا نتوهم أن الجمال باطن في صميم هذا الموضوع، ولهذا يُعرِّف سانتيانا الجمال بقوله: "إنه تلك اللذة المتجسمة في صميم الموضوع" (سانتيانا، 95)، أو تلك المتعة الباطنة في صميم الشيء (الملائم)، بشرط ألا ترتبط هذه اللذة (أو المتعة) بحاسة واحدة من حواسنا. وبعبارة أخرى، الجمال هو قيمة إيجابية نابعة من طبيعة الشيء خلعنا عليها وجودًا موضوعيًا، أو في لغة أقل تخصصًا– "الجمال هو لذة نعتبرها صفة في الشيء ذاته" (سانتيانا، 92). وكما أن الحقيقة هي تضافر وتعاون الإدراكات الحسيّة فيما بينها فإن الجمال هو التعاون بين اللذات، وإذا لم يكن في اللون والشكل والحركة جمال بدون عذوبة الرائحة فما أحوج هذه العذوبة ذاتها إلى

اللون والشكل والحركة حتى تتحول إلى جمال!، ويضرب سانتيانا مثلًا فيقول: "فلو أننا وضعنا العطر في قارورة لما فكر أحد في أن يصفه بالجمال، لأنه في هذه الحالة يولِّد فينا إحساسًا متفردًا أكثر مما ينبغي ويمكننا السيطرة عليه تمامًا، وليس هنالك الشيء الخارجي الذي يسهل علينا أن ندمجه فيه، ولكن تخيله منسابًا في إحدى حدائق الزهور، نجده يضيف جاذبية حسيّة إلى الأشياء، فيزيدها جمالًا على جمال (سانتيانا، 95). ولهذا يُعرِّف سانتيانا الجمال بأنه اللذة المتحققة موضوعيًا، كما يعرّفه بأنه التعبير عن المثالي أو الحق أو رمز الكمال الإلهي أو المظهر الحسي للخير(singer.1957.34) لذلك فـ "أنه إذا قدر لخيط اللذة الذهبي أن ينفذ إلى نسيج الأشياء الذي لا يكف عقلنا عن نسجه، فإنه عندئذٍ لا بد من أن يضفي على العالم المرئي ذلك السحر الخفي السري الذي نسمه في العادة باسم الجمال" (سانتيانا، 97).

وبهذا انتهى إلى تحديد الإدراك الجمالي تحديدًا فاصلًا حاسمًا، يميِّز بينه وبين الإدراك العقلي (العلم) من ناحية، وبينه وبين الحكم الخلقي من ناحية أخرى؛ فهي إذن مميزات أربع لا بد من توافرها في إدراك الشيء إدراكًا جماليًا.

1- الجمال (قيمة)، أي أنه ليس إدراكًا لحقيقة واقعة أو لعلاقة، وإنما هو انفعال، انفعال لطبيعتنا الإرادية التذوقية، فلا يكون الموضوع جميلًا إذا لم يولد اللذة في نفس أحد، والجمال الذي لا يهتم به أحد مطلقًا إنَّمَا هو تناقض في الألفاظ (سانتيانا، 92) .

2- الجمال (قيمة إيجابية)، أي أنه إحساس بوجود شيء حسن أو بانعدام شيء حسن في حالة القبح، وليس هو كالحكم الخلقي الذي لا ينشأ إلا عن طريق إدراكنا لجوانب النقص لتنقيها، فالقضية التي تقول بأن الشر ليس إلا انعدام الخير هي غالبًا قضية زائدة في ميدان الأخلاق، إلا أنها تصدق كل الصدق في علم الجمال. فحتى الرتابة وفساد الذوق وانحطاطه، وغيرها من الأشياء التي تتصف بها الحياة الخالية من الجمال ليست من الأمور القبيحة بقدر ما هي أمور شائنة يؤسف لها. فانعدام الخير الجمالي شر خلقي، أما الشعر الجمالي فهو شر نسبي بحت ويعني مقدارًا من الخير الجمالي، أقل مما كنا نتوقع في مكان وزمان معينين (سانتيانا،92، 93).

3- وهو (مباشر) لأنه لا يُراد به أن يكون وسيلة لمنفعة آجلة، (والمباشرة) بمعناها اللغوي الحرفي مقصودة هنا، أي أن تمس (بشرة) الذات المدركة (بشرة) الشيء المدرك- أعني أن يتلامس الشخص والشيء وأن يكون على صلة في لحظة الإدراك ذاتها، وبعبارة أخرى، أن الجمال خير مطلق أي أنه يرضي وظيفة طبيعية أو حاجة أو ملَكة جوهرية في العقل البشري. الجمال إذن هو قيمة إيجابية ذاتية (بمعنى أن قيمته في ذاته)، فهو لذة من اللذات، وهذان الشرطان: الإيجابية والذاتية هما اللذان يفصلان مجال الجمال عن مجال الأخلاق الفصل الكافي، فالقيم الأخلاقية عادة سلبية، وهي دائمًا غير مباشرة

لأن وظيفة الأخلاق تتعلق بتجنب الشر، والسعي وراء الخير، بينما تتعلق وظيفة الجمال بالمتعة (سانتيانا، 93).

4- ثم هو إلى جانب هذا كله، وفوق هذا كله، إخراج للنشوة الذاتية إخراجًا يدمجها في عناصر الشيء، وكأنها جزء من طبيعته، وعندئذٍ ينظر الرائي إلى الشيء الجميل فيحسب أن النشوة والمتعة واللذة منبثقة من الشيء ذاته وصادرة عنه لا من نفسه هو الباطنية، ومن طبيعة كيانه العضوي، ولذلك فإن الجمال تجربة نستمتع فيها بموضوع نقبل به لذاته دون أن نسأل أي سؤال(Abead.2025).

وأخيرًا تتميز لذات الحس عن إدراك الجمال، كما يتميز الإحساس عادةً عن ادراك الحسي، في كون العناصر التي يتألف منها إدراك الجمال تتحول إلى موضوعات ذات وجود خارجي بحيث تبدو صفات في الأشياء أكثر مما تبدو صفات في الوعي. والانتقال من الإحساس إلى الإدراك الحسي تدريجي، وقد نتمكن أحيانًا من تتبع الخطوات التي يمر بها (سانتيانا، 94).

وهذه هي الحال في الجمال- فيما يقول سانتيانا- وفي غيره من لذات الحس، فليس هناك حد فاصل واضح بينهما بل الذي يحدد قولي: (إن الشيء يسرني) أو (إن الشيء جميل) هو درجة تحويل إحساسي إلى موضوع، وإذا كنت واعيًا بذاتي متوخيًا الدقة وروح النقد فإنني قد استعمل إحدى هاتين العبارتين دون الأخرى؛ أما إذا كنت تلقائيًا شديد الحساسية فربما يحدث العكس، وكلما كانت اللذة نائية معقدة وثيقة الارتباط بغيرها بدت لنا أكثر موضوعية، وقد يكون الاتحاد بين لذتين مختلفتين مصدرًا للجمال الواحد، ويستعير سانتيانا مقطوعة غنائية لشكسبير (رقم 54) فيقول: "كم يبدو الجمال أكثر جمالًا حينما يضفي عليه الصدق زينته البديعة.

إن الوردة تبدو جميلة، إلا أننا نعدها أكثر رونقًا لذلك العطر الشذي الذي يحيا فيها. والأزهار السقيمة لها نفس اللون الأصيل الذي للوردة المعطرة، وهي عالقة على الأغصان تحيطها الأشواك مثل الوردة، ومثل الورود تراها تهتز بمرح حينما يهب نسيم الصيف فيكشف عن براعمها المقنعة. ومع ذلك فليس جمالها إلا مظهرًا، وهي تعيش دن أن يخطب ودها أحد. وتذبل دون أن يجلها أحد، وتموت وحيدة موحشة. أما الورود العذبة فليست هكذا، وإنما تصنع العطور العذبة من موتها العذب"(سانتيانا، 94 ،95).

وهكذا نرى أن الزينة الإضافية الواحدة هنا تجعل من اللون الذي كان مجرد مظهر وإحساس من قبل عنصرًا من عناصر الجمال والصدق، وكما أن الصدق هنا هو تعاون الإدراكات فيما بينها ، فإن الجمال هو التعاون بين اللذات.

وإذا كان لنا- في خاتمة المطاف- أن نحكم على نظرية سانتيانا في طبيعة الجمال، فربما كان في وسعنا أن نقول إن إعجاب سانتيانا باليونان قد أملى عليه اعتبار (اللذة) عنصرًا هامًا من عناصر الظاهرة

الجمالية، مما جعله يعد (الجمال) قيمة خالصة إيجابية، وكأن (الجمال) عنده قد يفي كما كان عند أفلاطون وأرسطو انسجامًا وكمالًا، تحققًا إيجابيًا محضًا. غير أن هذا الجمع بين مفهومي الجمال واللذة قد أثار الكثير من الاعتراضات، خصوصًا وأن تذوق الجمال ليس مجرد إدراك حسي، وإنما هو إدراك لقيمة، أو اكتشاف لدلالة جمالية هيهات لأي مظهر حسي أن يستوعبها بتمامها، وحتى لو سلمنا (جدلًا) مع سانتيانا بأن (اللذة) عنصر جوهري هام من عناصر (الفن)، فلا بد لنا من أن نتذكر أننا هنا بإزاء لذة من نوع خاص؛ لأنها لذة تبدو للذهن محملة بالمعاني، عامرة بالدلالات، ولو أننا عمدنا إلى تحليل الخبرة الجمالية لتبين لنا أن (اللذة) التي تقترن بها الخبرة إنَّمَا هي مظهر لتوافق الطبيعة والعقل، أو لانسجام (عالم الظواهر) مع (عالم المطلق)، وليست فكرة سانتيانا عن (الكمال) الذي تشير إليه كل خبرة جمالية سوى تعبير عن إيمانه الضمني بقيمة الجمال من حيث هو مظهر لانسجام الداخل مع الخارج، أو لتوافق (الطبيعة البشرية) مع العالم الخارجي، وإذن فإن فكرة اللذة لا تكفي وحدها لتفسير الجمال (إبراهيم، 77)، وإنما لا بد لنا من أن نفهم الخبرة الجمالية في ضوء فكرة سانتيانا عن توافق الموجود البشري مع الواقع، في اللحظة التي يتم فيها تلاقي الحواس والمخيلة مع موضوع رغبتهما، وبالتالي لابد من وجود نضج فكري عند المتلقي للموضوع وإلا كانت استجابته حسية ألية، لذلك فإن التأمل لا يعد فعلاً فكرياً، وإنما يحدث فجأة فيسيطر على المتلقي سيطرة كاملة(عبد المعطي، 1985، 241).

ومن هنا فإن الجمال يبدو– في نظر سانتيانا– بمثابة أوضح مظهر للكمال، وأعظم دليل على إمكان تحققه.

ثالثاً:. مقارنة بين الاتجاهات الفلسفية

تأسس الاتجاه الطبيعي والنفسي عند جورج سانتيانا كرد فعل مباشر على الهيمنة المثالية والميتافزيقية التي سيطرت على علم الجمال (الاستاطيقا) لقرون، ومفهوم التمايز الفلسفي. ونوضح في المقارنة بين أبرز الاتجاهات الفلسفية الكبرى ومواقفها من الجمال في مقابل رؤية سنتيانا.

أ– الموقف من الاتجاه المثالي والميتافيزيقي:

يمثل الموقف النظري لجورج سانتيانا نقطة تحول في الاستاطيقا الحديثة، وتحديداً في مواجهة الاتجاه المثالي والتجريدي الذي يتزعمه إيمانويل كانط وجورج هيجل، فحينما رأت المثالية الكلاسيكية أن الجمال قيمة متعالية ترتبط بالعقل الخالص أو تتجلى عبر الفكرة المطلقة، واشترط كانط (النزاهة والموضوعية الصارمة) كوسيلة لتنزيه التجربة الفنية من الغرض الحسي، فجاء سانتيانا ليقوض هذا التحديد الميتافيزيقي، إذ أرجع الجمال إلى أصوله الطبيعية والنفسية، معتبراً إياه نشاطاً حيوياً نابعاً من الغرائز الإنسانية الحية، حيث لا يمكن فصل تجربة التذوق عن اللذة الحسية المباشرة التي يشعر بها الكائن

البشري في تفاعله مع موضوعات العالم، فالفن والجمال يكمنان في التجسيد والتجريد، حيث يتحول العمل الفني إلى صورة فنية صادقة(حلمي،97،1976).

ب- الموقف من الاتجاهين النفسي والمادي

تميزت فلسفة سانتيانا بمسافة نقدية واضحة تجاه الاتجاه المادي والنفعي، الذي اختزل القيمة الجمالية في أبعادها الوظيفية، أو جعل من الفن مجرد أداة لخدمة المنفعة العملية والاجتماعية والتطور التاريخي للمجتمعات، وقد رفض سانتيانا هذا التوجيه الأداتي للفن، مؤكداً على أن التجربة الجمالية تمتلك قيمة جوهرية في ذاتها؛ فهي تجربة متحددة في أي غايات براغماتية أو منافع مادية مسبقة، وتتحقق غايتها الأسمى بمجرد حدوث فعل التذوق المباشر والاستمتاع الخالص بالموضوع الجمالي.

ج- الموقف في الاتجاه الأخلاقي المعياري:

أخيراً، يظهر تمايز سانتيانا بشكل جلي من انفصاله عن الاتجاه الأخلاقي المعياري- الذي يمثله ليف تولستوي والفلسفات الدينية- وهو الاتجاه الذي يُخضع الفن والجمال لمعايير الخير والشر، ويشترط توظيف الفن لخدمة قضايا الواجب والترقية الأخلاقية، في المقابل، أقام سانتيانا فصلاً ابستمولوجياً ونفسياً حاسماً بين الفئتين، حيث وصم القيم الأخلاقية بالطابع السلبي لكونها تنشأ من ماهية الإنسان لتجنب الألم ودفع الشر والامتثال للالتزام، بينما وصف القيم الجمالية بالطابع الإيجابي الخالص، كونها تنبثق من مساحات الحرية، والنشوة، وتحصيل المنحة التلقائية التي تُثري الوجود الإنساني دون قيد أو شرط.

بناءً على هذه المقارنة، تمثل خصوصية سانتيانا في دمجه الفريد بين ذاتية المتعة النفسية وموضوعية الإدراك الحسي، مما جعل فلسفته الجمالية جسراً يربط الطبيعة البيولوجية للإنسان بوعيه الروحي والفني الراقي.

الخاتمة

في ختام هذا البحث الذي تتبعنا فيه فلسفة القيم الجمالية عند جورج سانتيانا ومراجعاته النقدية للمدارس الكلاسيكية، يمكن القول أن أطروحة سانتيانا مثلت انعطافة راديكالية في تاريخ علم الجمال، فمن خلال تلخيص علم الجمال في قوالب الميتافيزيقا المثالية والتجريد العقلاني، نجح في إعادة الاعتبار للخبرة الإنسانية المباشرة وأسس لمنظور طبيعي وسيكولوجي متكامل، يبحث في القيمة الجمالية بوصفها نتاجاً للاشتباك العضوي والحسي للإنسان مع عالمه المادي.

وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، وهي:

1ـ تجاوز المثالية الكلاسيكية: اثبتت المراجعة النقدية لسانتيانا أن مفهوم النزاهة المطلقة عند كانط والمثاليين قد أفرغ الجمال من نبضه الحسي والحيوي، وقد بين سانتيانا أن المتعة الجمالية ليست حكماً عقلياً بارداً، بل هي لذة سيكولوجية عميقة، وتحدث لها عملية تموضع للذة لتصبح صفة تلتصق بالموضوع الفني أو الطبيعي نفسه.

2. الخصيصة الحركية للإدراك الجمالي مقابل الإدراك العقلي: تبين للبحث أن الإدراك العقلي المعرفي هو نشاط وسيط وأدائي يفرغ الأشياء من حضورها لصالح تصنيفات مجردة وعلاقات سببية تخدم البقاء المادي، بينما يتميز الإدراك الجمالي بأنه غائي ومباشر يستغرق في المنظر الحسي واللحظة الوجودية، محولاً التلقي الفني إلى مساحة للتأمل الخالص المجرد من الرمزية الجافة.

3. التباين الاكسيولوجي بين الجمالي والأخلاقي: أفرزت المقارنة بنية فارقة بين الحكمين: فالأخلاق تنتمي لعالم الاضطرار والسلب ودفع الضرر (الحد الأدنى لحماية البقاء الجماعي)، في حين ينتمي الجمال لعالم الحرية والوفرة والإيجاب المحض، حيث لا يعالج الجمال نقصاً بيولوجياً أو معيارياً، بل يضيف بهجة نوعية للوجود.

وأخيراً، فإن ترسيم الحدود بين الأحكام الثلاثة (العقل، الأخلاق، الجمال) عند سانتيانا لم يكن مجرد ترف فكري، بل كان محاولة لإنقاذ الفن والجمال في الأدائية المعرفية والوصاية الأخلاقية. فلقد وسع سانتيانا تراتبية غائية مبهرة؛ فإذا كان العقل يفسر العالم، وكانت الأخلاق تحمي العيش معناه وقيمته؛ فالأخلاق تضمن إمكانية الحياة، والجمال يضمن جودة وازدهار هذه الحياة.

قائمة المصادر والمراجع

1ـ بركاوي، نور الهدى(2023)،فلسفة الجمال عند جورج سانتيانا، رسالة ماجستير، جامعة قاصدي مرتاح.

2. الحسين، إبراهيم(2019)،إشكالية الإحساس الاستطيقي عند جورج سانتيانا، مجلة جامعة تشرين، م 4، عدد4.

3. حلمي، أميرة (1976)،مقدمة في علم الجمال، دار الثقافة.

4. ديورانت، ول(1988)،قصة أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة عبد الله المشعشع، ط2، مكتبة المعارف.

5. زكريا إبراهيم(د.ت) فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر للطباعة.

6. سانتيانا، جورج(2011)،الإحساس بالجمال، ترجمة محمد مصطفى بدوي، الهيئة المصرية للكتاب.

7. عبده، مصطفى(1999)،فلسفة الجمال ودور العقل في الإبداع الفني، مكتبة مدبولي.

8. عبد المعطي، علي(1985)،الإبداع الفني وتذوق الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية.

9ـ مصطفى، هيلا، (2012)، تربية الحكم الجمالي في ضوء الأساليب المعرفية المعاصرة، مجلة كلية التربية الأساسية، العدد74.

10-Singer,Irving(1957),Santyana,s Aestheticz -Acritical Introduction, The Président and Fellows of Harvard College,U.S.T.

11-Jacques Duron: "La philosophie de G. Santayana", 1950.

12- Khamis. Lutfia,(2025), Ibn Qayyim al-Jawziyya's Philosophy of Beauty, Issue 9University of Zawia - Rewaq Alhkma Journal (UZRAJ) Volume 2, https://doi.org/10.26629/uzrhj.2025.10

13- Abead. Najat ,(2025) The philosophy of beauty and its relationship to artistic perception and appreciation. https:// oi.orgd/10.26629/uzrhj.2025.11